الفَصْلُ السَّابِعُ

إيران والعراق في عهد السلاجقة

السلاجقة قبائل تركية عدة نزحت من آسيا الصغرى في أواخر القران الرابع الهجري، واستوطنوا خرسان، ثم استولوا على نيسابور، وكانوا قد دخلوا الإسلام على مذهب السنة، وتمكنوا من تأسيس أنفسهم بعد انتهاء الغزنويين وسقوطهم، وقد انتصروا على السامانيين الذين كانوا يحكمون بعض أطراف إيران، ثم اكتسحوا نفوذ البويهيين في كل من إيران والعراق، وحكموا الشام، ووقفوا ضد الحروب الصليبية وضد تدخلات الدولة الفاطمية بمصر، ولقد أسقط السلاجقة السلطة الغزنوية سنة ٤٣١هـ، واعترف بهم الخليفة العباسي، بقيادة طغرل بيك، ثم استولى على الري، واتخذها عاصمة، وفازوا باعتراف الخليفة العباسي بفتوحاتهم وسلطتهم، وقسم سلاطين السلاجقة حكم الأقاليم بينهم خاصة في إيران والعراق، واعتمدوا على تأييد العلماء والصوفية، فانتعشت بذلك الفرق الصوفية في عهدهم، وقد يرجع ذلك إلى سبب نشأتهم في آسيا الصغرى وسبب تأثر المسلمين بالديانات والمذاهب الأخرى التي تلتقي مع التصوف في الفكر، وحيث ضعفت قوة البويهيين على الحكم، وكثر تدخل الفاطميين في هذا الوقت جاء طغرل بجيشه، ودخل بغداد سنة ٤٤٧هـ، وطرد النفوذ البويهي، وتوفي طغرل في الري سنة ٤٥٥هـ ومع أن خلافات قد حدثت بين السلاجقة حول الحكم إلا أن الأمور آلت إلى ألب أرسلان الذي كان في الري أيضًا، وبسط نفوذه فيما بعد على العراق والشام، ففي العراق نصب وزيره نظام الملك الذي اشتهر بالمعرفة والحكمة، فهو الذي أنشأ المدرسة النظامية ببغداد، وقد قتله الشيعة الحشاشون الذين علا شأنهم في الشام وسواحل البحر الأبيض المتوسط[١].

---

(١) د. عبدالنعيم محمد حسنين: إيران والعراق في العصر السلجوقي، ص٩ وما بعدها -دار الكتاب اللبناني- بيروت، ١٩٨٢م.

واتجه ألب أرسلان لقمع الحركات الثائرة ضده خاصة في إيران، فلما استقرت الأمور إليه اتجه لتحقيق أهدافه الكبرى؛ وذلك بنشر الإسلام في أصقاع الدولة البيزنطية التي سادت فيها الديانة النصرانية، فقاد جيشه من أذربيجان، وأخضع بلاد الأرمن وجورجيا حيث أدخل الإسلام إليها، ثم اتجه إلى الشام، وأخضع حلب، وانتشلها من نفوذ الفاطميين، وعزز حدود الدول ضد بلاد القيصر بيزنطة، وأخضع فلسطين وبيت المقدس لنفوذه، وكان ذلك عام ٤٦٣هـ، ثم حارب جيش الروم، وانتصر عليهم في معركة ملازكرد، وأسر قيصر الروم، فانحسر نفوذ الدولة الرومانية عن آسيا الصغرى ما سهل فيما بعد الأمور لحكم العثمانيين، ووصل نفوذ السلاجقة إلى مدينة قونية وما حولها، ونشر السلاجقة الإسلام في هذه المنطقة زمنًا طويلًا تحت نفوذ الروم ما جعل ملوك أوروبا يتخوفون من هذا الزحف؛ ولذا بعد عشرين سنة بدأت الحروب الصليبية لصد الإسلام، وخاصة في الشام وفلسطين لإيقاف هذا الزحف، وقد قتل ألب أرسلان سنة ٤٦٥هـ قريبًا من مرو بإيران، ودفن فيها، وقتل انتقامًا على يد أحد قواد الأمراء الخانيين فيما وراء النهر سنة ٤٦٥ - عن عمر ٤٤ سنة، فخلفه ابنه ملك شاه، حيث قمع ثورة عمه المطالب بالسلطان، وساعده على ذلك الوزير نظام الملك، فأعاد إخضاع بلاد الشام وحلب ودمشق خاصة لنفوذه كل ذلك باسم الخلافة ببغداد باعتبار أن الخليفة العباسي قد أوكل إليهم فعل ذلك، فاتسعت دولة الإسلام في عهدهم مشتملة على كثير من الشعوب والأقوام، ولكن دب في دولتهم عوامل الضعف التي نختصرها فيما يلي:

١- ظهور الدعوة للمذهب الإسماعيلي الفاطمي في إيران خاصة على يد الحشاشين (كانوا يتناولون الحشيش) ويرجع نفوذ الإسماعيلية الحشاشين إلى حسن الصباح حيث كان في الري، وتنقل في الشام والعراق، ثم استقر به المقام بمصر عند الفاطميين، وانتهز فرصة انقسام وتأسيس دولة فاطمية

صغيرة في الإسكندرية انفصلت عن القاهرة، ولكن السلطان الفاطمي قضى عليها، فهرب حسن الصباح إلى مكان مولده، ونشر التشيع الإسماعيلي سنة ٤٧١هـ، فكون بذلك جيشًا من الإسماعيلية النزارية (الحشاشون) واتخذ سنة ٤٨٣هـ قلعة الموت بإيران مركزًا له، فألفوا فرقًا فدائية تقوم بقتل مخالفيهم.

٢- من الأمراء والوزراء والقضاة، فقد قاموا بقتل الوزير السلجوقي الحاكم ببغداد نظام الملك، وهو يستعد لاستقبال السلطان السلجوقي ملك شاه، وقد تنبه السلاجقة لخطرهم سنة ٤٨٥هـ، وبعد هذه الحادثة ضعف حكم السلاجقة نتيجة الخلافات فيما بين أمرائهم الذين يحكمون الأقاليم في إيران والعراق خاصة وكذلك الخلاف بين أمرائهم ووزرائهم من جهة والخلافة العباسية، إلا أن أهم عدوين اصطدما بالسلاجقة هما الفاطميون الإسماعيليون حكام مصر، ثم الصليبيون الذين تجمعوا بقوة ملوك أوروبا والكنيسة المسيحية.

٣- وقد ذهب الإسماعيلية في أصفهان وما حولها من قلاع، وأصبحوا يهددون سلطان السلاجقة، فقام السلطان محمد السلجوقي بحصار قلعة الموت وفيها زعيم الإسماعيلية، ولكنه لم يقدر على فتحها ما جرأ الإسماعيلية على نشر مذهبهم في الشام وانتقال حسن الصباح ونشر الدعوة الإسماعيلية على سواحل البحر المتوسط، فانتشر مذهبهم في اللاذقية وأنطاكية وسور وجبل عامل وغيرها، واعتمد الإسماعيلية على نشر مذهبهم بالقوة والتهديد، فألفوا كتائب الفدائية لتقوم باغتيال الزعماء من خصومهم من وزراء أو قضاة سواء كان في إيران أو الشام.

٤- أما خطر الحروب الصليبية فقد كانت سببًا لضعف حكم السلاجقة، وبسبب حقد الصليبين على السلاجقة، فقد تجمعوا سنة٤٩٢هـ لغزو بيت

المقدس مدعين أن المسلمين يمنعون النصارى من زيارة القدس، وأنهم يجاهرون بعداء النصرانية، فقد نادى بابا روما والقيصر لحرب صليبية ضد المسلمين وطلبا جيشًا من ملوك أوروبا، فتجمع في القسطنطينية جيش كبير زحف على مراكز السلاجقة في بلاد الأناضول ونيقية، ثم اتجه إلى جبال طوروس، ودخل أنطاكية، ولم يستطع السلاجقة صد هذا السيل الجارف سنة ٤٩١هـ ما مكن الصليبيين من الاستيلاء على سواحل البحر الأبيض المتوسط بانياس، وطرسوس، وعكا...

٥- اختلاف قوة السلاجقة والفاطميين الذين كانوا يحكمون هذه المنطقة وانقسام قوى المسلمين فيما بينهم، فقد كان الفاطميون يحكمون بيت المقدس قبل استيلاء الصليبيين عليها، وبعد تعاظم الخطر الصليبي التجأ الناس إلى الخلافة في بغداد طالبين صد هجومهم، ولكن كانت الخلافة وسلطان السلاجقة في حالة ضعف، وبعد إلحاح سنة ٥٠٩هـ جمع الخليفة والسلطان محمد السلجوقي جيشًا سار به لمحاربة الصليبين، ولكن هذا الجيش لم يستطع الانتصار على الموجات الصليبية المتتالية، ولم ينتصر الفاطميون على الرغم من قوة أسطولهم البحري، فقد استمر الحكم الصليبي لفلسطين والشام ما يقرب من قرنين من الزمن، ودب الخلاف أول الأمر بين سلاجقة إيران وسلاجقة العراق كلٌّ منهم يريد التغلب على السلطة، وقد كان سلاجقة إيران هم الأقوى في هذه الفترة، وخاصة في خرسان غير أن دولة القبائل التركية من الفترة الخطائية والخوارزمية بدأت بالتمدد من بلاد ما وراء النهر إلى إيران والانتصار على السلاجقة.

أما سلاجقة العراق فقد انتهى بهم الأمر إلى الخلاف فيما بينهم وظهور قوة متشاكسة هذا من جهة، ومن جهة أخرى لم يتمتعوا بثقة الخلافة العباسية التي كانت في أوج ضعفها، ولكن قوة أخرى برزت في العالم الإسلامي وهي

قوة صلاح الدين الأيوبي حيث كان أحد قادة الجيش الفاطمي بمصر، فلما شاهد انحراف الفاطميين وتخاذلهم عن حرب الصليبين قام وأنصاره بإسقاط الخلافة الفاطمية بمصر، ثم بسط نفوذه على اليمن، ثم بسط نفوذه على سوريا والموصل، فوحد هذه الجبهة ضد الصليبين، واعترف له الخليفة العباسي بالسلطة والإمارة، فبدأ بغزو الصليبيين وقتالهم بادئًا من طبرية، ثم التقى الجيش الصليبي في معركة حطين الشهيرة، فكان هو المنتصر، وبدأ بتطهير نفوذ الصليبيين من مدن الشام إلى أن وصل سنة ٥٨١هـ إلى أن دخل القدس، فأحس ملوك أوروبا بهذا الخطر، فتجهز فريدريك إمبراطور ألمانيا، وريتشارد قلب الأسد ملك إنجلترا، وفليب أغسطس ملك فرنسا، فتمكنوا من الاستيلاء على عكا سنة ٥٨٧هـ ولكن أخيرًا تمت الغلبة لجيوش المسلمين ودحر الصليبيين في وقت وفاة صلاح الدين الأيوبي سنة ٥٨٩هـ[١].

الحالة الدينية والاجتماعية في العصر السلجوقي:

الأصل في حياة السلاجقة أنها كانت بدوية، ولكن بعد استقرارهم في الأمصار وتعاملهم في الحكم تغيرت أحوالهم، فنظموا دولة السلطنة التي هي أساس حكمهم، فاكتسبت شرعية من اعتراف الخلافة العباسية لها، ونظموا منصب الوزارة والدواوين والشرطة بما يتناسب مع احتياجات الحكم في كلٍّ من إيران والعراق خاصة، وعمومًا فقد كان هناك رضا نسبي من قبل المجتمع السني وتأييد الخلافة لهم، ولكن تدهور الأحوال الاقتصادية والخلافات بين أمراء السلاجقة انعكست على الوضع الاجتماعي خاصة في أواخر حكمهم، فانتشر التشيع الإسماعيلي في إيران والشام، وأصبحت ظاهرة الاقتتال بين المذاهب ظاهرة شائعة حتى عمت مذاهب السنة أنفسهم حيث حصل اقتتال بين

(١) د. عبدالنعيم محمد حسنين: المصدر السابق، ص٣٩، وما بعدها/ د. فاروق عمر: المصدر السابق، ص١٦٢ وما بعدها.

الشافعية والحنفية في إيران، وظهرت ملامح التعصب الديني المذهبي إلى درجة وصلت ببعض المفتين من علماء عصرهم القول بعدم صحة الصلاة في حالة اختلاف مذهب الإمام والمأمومين، وانتشرت فرق الصوفية، واتخذ مريدوها زاوية في كل مدينة، وقد استخدم السلاطين والوزراء نفوذ مشايخ الصوفية لنيل أغراضهم وسريان نفوذهم على العامة، فتأخر العلم الديني، ودخلت الأمة في سبات فكري أنتجت ظهور طائفة أباحت لنفسها أن تقوم مقام الدولة في تأديب الناس حتى تجاوزوا على رجال الدولة وعلى الشرطة، وقد شاعت حياة الترف بين الطبقة العليا، وكثر العبيد والموالي في الوقت نفسه، فقد تخلف العنصر العربي في إدارة الدولة والمجتمع، وأصبحوا ضمن عداد الفقراء، وتخلف نفوذهم الاجتماعي ما ساعد على شيوع العادات الأعجمية وعلى الرغم من كل ذلك فقد كان للسلاجقة وخاصة في عهد الوزير نظام الملك عناية بنشر العلم والثقافة، فقام هذا الرجل بتأسيس المدرسة النظامية ببغداد لتدريس العلوم الإسلامية، وقد غلب عليها المذهب الشافعي، وكان أبوحامد الغزالي أهم مدرسيها، وأنشئت مدارس مثلها في الحواضر الكبيرة كنيسابور والري وأصفهان ومرو، وشاع نسخ الكتب في جميع العلوم الإسلامية، وانتشر التدريس في المساجد التي ضم أكثرها خزائن ومكتبات يرجع إليها الدارسون، وكان السلاجقة قد اهتموا ببناء المساجد والأضرحة ووضع القبب عليها، وشاع هذا الفن المعماري في دولتهم، وقد كانت اللغة العربية والفارسية هما لغة الثقافة والعلم، وقد ظهر في هذا العصر فلاسفة كبار كتبوا مؤلفاتهم التي كانت بين الفلسفة اليونانية والفلسفة الإسلامية، وظهر شعراء مشهورون مثل عمر الخيام. ويرجع الرقي في العلوم والتأليف في هذا العصر إلى كونه إحدى النتائج التي خلفها القرن الثالث والرابع الهجري من علوم وترجمة، فقد استغل السلاجقة هذا التطور الفكري، وأفادوا منه على الرغم من أصولهم البدوية وقلة معرفتهم العلمية، ولكنهم شجعوا العلم

والعلماء، وأجزلوا الهبات، وتوسعوا في بناء دور العلم والمساجد نتيجة تكامل وتقدم المجتمع الإسلامي الذي ورث علوم السابقين، فأظهرها[١].

الحشاشون في إيران: (الإسماعيلية).

نسب اسمهم يرجع إلى استخدامهم الحشيش المادة المخدرة، ويسمون أيضًا النزارية نسبة لمؤسسهم نزار بن المستنصر بالله الفاطمي، أو يسمون السبعية الإسماعيلية الباطنية؛ وذلك لاعتقاد الإسماعيلية للأئمة السبعة، ويسميهم مؤرخو الغرب القتلة؛ لاعتمادهم الاغتيالات لمخالفيهم، وقد نشأت هذه الفرقة في إيران عند انتشار مذهب الشيعة الإسماعيلية في بعض الأقاليم، ونشؤوا في القرن الرابع الهجري بتأثير من الإسماعيلية الفاطمية بمصر والشام، وقيل: إن أول دعاة الإسماعيلية إلى إيران شخص اسمه خلف أرسله ابن ميمون القداح لنشر الدعوة في الري وآبة وقم وكاشان وولاية طبرستان ومازندران، ثم تولى ابنه محمد بعد موته نشر المذهب، ومن أهم من تأثر به بحسب ما قيل رجل يدعى أبا حاتم وصف بأنه الرازي وأن البغدادي قد ذكره في كتاب (الفرق بين الفرق) ويبدو أن بعض أمراء السامانيين قد أيدوا الدعوة الإسماعلية، ولكنها نكبت في عهد الأمير الساماني نصر بن أحمد الساماني، وبعد أبي حاتم تولى الدعوة عبدالله الكوكبي وأبو إسحاق وعبدالملك ومن دعاة الإسماعيلية في خراسان وبلاد ما وراء النهر أبو عبدالله الخادم، وأبو سعيد الشعراني، الحسين بن على المرورادي، والنسفي، وكان ذلك في بداية القرن الرابع الهجري[٢] ويذهب بعص المؤرخين إلى أن نشأة الإسماعيلية في الكوفة قد تمت قديمًا على أنقاض مذهب الخطابية الموغلين في التفسير الباطني، كذلك

(١) د. عبدالمنعم محمد حسنين: المصدر السابق، ص١٥٩ وما بعدها.

(٢) د. فاروق عمر: المصدر السابق، ص١٨٧ وما بعدها/ د. محمد السعيد جمال الدين: الدولة الإسماعيلية في إيران، ص٤٦ وما بعدها، الدار الثقافية للنشر، القاهرة، ١٩٩٩م.

بعد وفاة المستنصر بالله الفاطمي بمصر سنة ٤٨٧هـ، ويرى بعض المؤرخين أن الدعوة الإسماعيلية بمصر انشقت إلى قسمين بسبب تنافس قادة الجيش الفاطمي الذين كان منهم حسن الصباح، حيث حاول إقامة دولة إسماعيلية في الإسكندرية، ولكن جيش الفاطميين هاجمه، وأجهض جهوده، فهرب إلى إيران مؤسسًا بذلك مذهب الحشاشين النزاريين. قيل: إنه فارسي الأصل ومن الموالي، وقيل: إنه من قبيلة حمير اليمنية حيث نزح أبوه إلى الكوفة، ومن الكوفة إلى قم، ثم انتقل منها إلى الري، وفيها ولد حسن الصباح الذي نشأ في قم، ودرس في نيسابور مع صديقيه عمر الخيام ونظام الملك، وقد سبقه الداعي الإسماعيلي أبونجم السراج العراقي إلى مدينة الري لنشر هذا المذهب. وفي سنة ٤٨٤هـ استولى الحشاشون بقيادة حسن الصباح على قلعة الموت في إيران، وأسسوا فيها مذهبهم، وبسطوا نفوذهم فيما حولها قرب مدينة قزوين، فكون جيشًا من الفدائيين القتلة بدوافع مذهبية، الذين نجحوا في اغتيال الخليفتين العباسيين المسترشد والراشد، والخليفة الفاطمي، ووزير السلاجقة ببغداد نظام الملك، وكثير من أمراء وعلماء المسلمين خاصة في الشام، ولكنهم فشلوا في اغتيال ملك شاه السلجوقي وصلاح الدين الأيوبي، وتنقل من الشام إلى مصر سنة ٤٧١هـ ملتحقًا بخدمة المستنصر بالله الفاطمي، وقد توفي حسن الصباح سنة ٥١٨هـ، وأوصى بالإمامة لخليفته بزرك أميد، وحاول السلاجقة في إيران الوقوف ضد الحركة الحشاشية وهدم بعض قلاعها، ولكن المغول في إيران هاجموا قلعة الموت بقيادة هولاكو، فتفرق الحشاشون سنة ٦٥٤هـ، وكان يرافق هولاكو علاء الدين ملك عطاء الجويني حيث ذكر في كتابه الذى ألفه عن الإسماعيلية أنه قد نصح هولاكو بعدم حرق مكتبة الإسماعيليين في قلعة الموت، وأن ينتخب له أجود ما فيها من كتب وحرق المتبقي ذكر ذلك في كتابه (جهانكشاى) الذى ألفه عن الإسماعيلية، وتولى فيه تاريخ حسن الصباح ونشره المذهب في إيران والعراق، وانحرفت هذه الحركة حتى عن العقيدة الإسماعيلية الأساسية حيث أوغلوا في

التفسير الباطني والتحلل من الواجبات الدينية، وانتقلت دعوة الحشاشين إلى بلاد الشام بجهود من رشيد الدين سنان بن سلمان المرسل من حسن الصباح سنة ٥٥٨هـ حيث تركزت أولًا في حمص، ومنها تسللوا إلى بعض القلاع المنتشرة في الجبال المحاذية لسواحل البحر الأبيض المتوسط، وبثوا الرعب عن طريق الاغتيالات كما كان شأنهم في إيران والعراق، فقد اغتالوا الكثير من فقهاء الشام وأمراءها، وانتهت هذه الحركة على يد المماليك خاصة بجهود من الظاهر بيبرس على الرغم من أن بعض المماليك قد استخدموهم في الاغتيالات لأغراضهم السياسية، ويبدو أن آثار هذه الحركة انتقلت إلى مراحل سرية بعد هزيمتها في هذه المنطقة، خاصة ما تعلق منها بتعاليمها الدينية التي تقضي بأن النبوة لم تنقطع، وأن تعاليم الإسلام خاضعة للتأويل الباطني بما يخدم أغراضهم وسياستهم، ونسب إليهم عقيدة الحلول الإلهي والمناداة بإباحة المحرمات، ويبدو أنهم متأثرون بالعقائد المجوسية، وخاصة العقيدة المانوية الفارسية، وقد فسر كثير من المؤرخين الدعوة الحشاشية بأنها رد فعل ضد تعاليم الإسلام ونفوذ العرب في إيران مستخدمة التعاليم الزرادشتية القديمة والموروثة في المنطقة، وقد فضح مذهبهم أبوحامد الغزالي في كتابه (فضائح الباطنية).